ثورات الربيع العربي في صورة الكاريكاتير

دراسة سيميائية

عمر عتيق

فلسطين

تعاين الدراسة بعض المحاور السيميائية التي توسل بها فنانو الكاريكاتير في تصوير أحداث ثورات الربيع العربي. ويرصد المحور الأول توظيف فنان الكاريكاتير لرموز مواقع التواصل الاجتماعي وبخاصة موقع الفيسبوك في ثورات الربيع العربي. وتجسد رموز مواقع التواصل الاجتماعي في صورة الكاريكاتير الثقافة التقنية لجماهير الثورة في مقابل سياسة القمع والتنكيل. ويرصد فنانو الكاريكاتير " نجاح " لجان التنسيق في التخطيط والتنفيذ لفعاليات ثورات الربيع العربي من خلال التواصل بينهم عبر شبكات مواقع التواصل الاجتماعي، والمواجهة بين رواد مواقع التواصل الاجتماعي والأجهزة الأمنية المدافعة عن مؤسسة النظام، وتحول رموز مواقع التواصل الاجتماعي إلى سلاح ناري. ولا تخلو صورة الكاريكاتير في سياق ثورات الربيع العربي من "دعابة سياسية " تصور تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على تشكيل برلمان الدولة (الجديدة) بعد سقوط الأنظمة الحاكمة. ويتحول موقع "اليوتيوب" إلى لوحة كاريكاتورية تصور العنف و(الفلتان) الأمني الذي استشرى في أعقاب ثورات الربيع العربي.

ويقف المحور الثاني على تجليات التناص في صورة الكاريكاتير بهدف الكشف عن الأبعاد العقائدية والتاريخية لثورات الربيع العربي، ويتوزع التناص إلى تناص ديني يرصد امتصاص البعد الدلالي لآيات من القرآن الكريم تشكل مفصلا في تاريخ البشرية، ونبضا فكريا وعقائديا في الخطاب الديني والذاكرة الجماعية. وتناص أدبي يعاين حزمة من أبيات الشعر التي تشكل وقودا للثورة، وتحدد وظيفة الشعر وغايته في التغيير الجذري السياسي. وتناص تاريخي يتمثل باستدعاء الشخصيات التاريخية، لتكون الشخصية المستدعاة حافزا على الصبر والصمود في مواجهة الأزمات والمخاطر، لهذا يستدعي فنانو الكاريكاتير شخصيات تاريخية للتعبير عن مفارقات سياسية بين ماض عريق في الأصالة والكرامة، وحاضر غريق في الإهانة، نحو شخصية المعتصم الذي يجسد منظومة من القيم التي تكفل الحرية

والكرامة والشهامة. وتأتي وظيفة استدعاء الشخصيات نقيضا لما تقدم حينما تتشابه سياسة الشخصية المستدعاة مع سياسة النظام الحاكم، وتختلف مع أهداف الثورة، نحو استدعاء شخصيات "نيرون وهولاكو وهتلر" بهدف المقاربة بين مشهد تاريخي دموي، ومشهد معاصر مأساوي. والتناص الرقمي الذي تبرز فيه مهارة رسام الكاريكاتير في تحويل الأرقام الزمنية إلى دلالات سياسية، وتعتمد المهارة على التشكيل البصري للأرقام.

أولا : مواقع التواصل الاجتماعي

رصد فنانو الكاريكاتير " نجاح " لجان التنسيق في التخطيط والتنفيذ لفعاليات ثورات الربيع العربي من خلال التواصل بينهم عبر شبكات مواقع التواصل الاجتماعي التي أسهمت في إلغاء المسافات الجغرافية، وتهميش دور المؤسسة الأمنية الرسمية التي عجزت عن إيقاف التواصل بين لجان التنسيق على الرغم من الإجراءات الأمنية والتقنية التي اتخذتها كحظر بعض المواقع الالكترونية وقطع خطوط الاتصال الهاتفي.ويبدو في الصورة انتصار لجان التنسيق في التواصل على الرغم من التحديات والمعيقات، كما يظهر الدور المفصلي لشبكات التواصل الاجتماعي في هزيمة النظام الحاكم الذي جسده فنان الكاريكاتير بالرئيس المخلوع " حسني مبارك " الذي " تعثر " بأسلاك شبكات التواصل الاجتماعي.

وقد استمد فنان الكاريكاتير من الدور الثوري لمواقع التواصل الاجتماعي وهو التخطيط والتنظيم والتنسيق والتحريض رؤية فنية رمزية في لوحاته؛ فرسم ذلك الدور الثوري في لوحة مواجهة بين رواد مواقع التواصل، والأجهزة الأمنية المدافعة عن مؤسسة النظام، ويغلب على الصورة البعد الملحمي الرمزي، فظهر موقعا (الفيسبوك وتويتر) سيفين مشهرين في وجه القوة العسكرية للنظام.

ويدل حجم السيفين وشكلهما على قوة الإرادة وعنفوان المواجهة، ويدل تقدم السيف الذي يحمل اسم الفيسبوك على السيف الذي يحمل اسم تويتر على الدور الريادي لموقع الفيسبوك الذي يعد أكثر شهرة من موقع "تويتر" في التنسيق لفعاليات ثورات الربيع العربي. كما أن الصورة الحركية للمواجهة

بين الطرفين تدل على أن "جماهير" مواقع التواصل الاجتماعي تتخذ وضع الهجوم في حين يتخذ النظام الحاكم وضع الدفاع. واختلاف الوضعين مؤشر فني على انتصار جماهير الثورة. ولم يغفل فنان الكاريكاتير دور الصحافة التي ساندت فعاليات الثورة، فأظهر صورة فتاة صحفية ترصد المواجهات بين الطرفين.

ويوظف فنان الكاريكاتير تقنية التشكيل البصري في الكتابة لإظهار الترابط بين موقع الفيسبوك وثورات الربيع العربي، فعمد إلى كتابة الحرف الأول (f) من كلمة" freedom/ حرية" باللون الأزرق، ومن المعلوم أن حرف (f) أصبح في الخطاب التقني اختصارا لموقع الفيسبوك. ولو كتب حرف (f) باللون الأسود كما كُتبت الحروف الأخرى لكلمة" freedom لما دلت لوحة الكاريكاتير على علاقة الفيسبوك بالثورة، فالحرف الأزرق علامة سيميائية تختزل الدلالة المركزية التي يُصطلح عليها في ثقافة التواصل التقني. إن كتابة كلمة (freedom) على راية مرفوعة تعبر عن شعار مألوف في الخطاب الثوري، لكن اللون الأزرق للحرف حول الدلالة المألوفة للحرية إلى دلالة ثورية تقنية، وتضمن بُعدا فكريا وسياسيا يتمثل بالدور الريادي الذي نهض به الفيسبوك الذي أضحى أيقونة تضيء بدلالات الحرية والثورة.

وتتحول رموز مواقع التواصل الاجتماعي إلى سلاح ناري كما يبدو في اللوحة التي يظهر فيها حرف (f) الأزرق، وحرف (t) الأخضر " اختصار لموقع تويتر" ـــ إضافة إلى صورة الهاتف النقال الذي أسهم في التواصل بين لجان التنسيق الثورية من خلال خدمة الرسائل القصيرة (sms).وتفضي عبارة (أسلحة الثوار في الألفية الثالثة) في أعلى الصورة إلى مقارنة بين المهارات التقنية لجمهور الثورات العربية، والقدرات العسكرية للأنظمة الحاكمة.وتؤكد هذه المقارنة على أن المهارات التقنية في سياق التواصل والتنسيق بين جماهير الثورة تتفوق في تأثيرها ونتائجها على القدرات العسكرية. ولم تتشكل هذه المقارنة من خيال رسام الكاريكاتير، بل إن تأثير الحشود الشعبية، وضغط الجماهير في الميادين والساحات هو الذي ألهم رسام الكاريكاتير للتعبير عن هذه المقارنة.

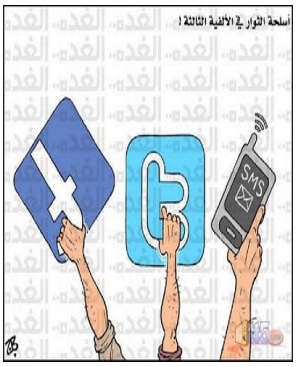

ولا تخلو صورة الكاريكاتير في سياق ثورات الربيع العربي من "دعابة سياسية " تصور تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على تشكيل برلمان الدولة "الجديدة" بعد سقوط الأنظمة الحاكمة،فنواب البرلمان في الصورة يتخذون من رموز الفيسبوك لافتات للتصويت على القرار، فرمز الإبهام المرفوع للأعلى(like) يعني الموافقة على القرار، والإبهام للأسفل(dislike) يعني عدم الموافقة، ويستمد فنان الكاريكاتير لغة رواد الفيسبوك للتعبير عن قرار (الموافقة بشدة) (like tahn) بوساطة كلمة " طحن" التي يكثر استخدامها بين رواد الفيسبوك للتعبير عن الإعجاب الشديد بالقرار أو الموقف.

وحرص الرسام على تسويغ رؤيته الفنية للعلاقة بين البرلمان والفيسبوك بكتابة عبارة باللهجة المصرية: "البرلمان اللي جيه بالفيسبوك يشتغل بالفيسبوك". ويتضمن أسلوب الدعابة في الصورة رسائل سياسية؛ فجمهور الفيسبوك قادر على تحديد التوجهات الفكرية والسياسية لأعضاء البرلمان المنتخب، وقادر على "حل البرلمان " إذا تعارضت قراراته وتوجهاته مع الاستحقاقات السياسية والوطنية لجمهور الفيسبوك؛ إذ يمكن للمعارضة أن تنشئ صفحة على موقع الفيسبوك لحل البرلمان ما دامت صفحات الفيسبوك قادرة على تحريك الجماهير، وتوجيه بوصلة الثورة، ورصد أداء البرلمان وأجهزة الدولة ومؤسساتها.

واستئناسا بما تقدم وظف فنان الكاريكاتير رمز الإبهام للأسفل لتصوير حجم المعارضة للنظام السوري واتساع نطاقها، وأضاف من مخيلته صورة فنية تعزز دلالة رمز المعارضة، فصور رمز الإبهام مطرا غزيرا، والرئيس السوري يحاول الاحتماء من المطر الرمزي.وتدل ملامحه ونظراته وهيئة وقوفه على قلقه وخوفه من المعارضة. وتجسد الصورة العلاقة العدائية بين المعارضين على صفحات الفيسبوك ومؤسسة النظام الحاكم. وتؤكد غزارة رموز عدم الإعجاب (المعارضة) فشل التدابير الأمنية في منع نشاط المعارضة على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي.

ويقتصر التفاعل العربي في صورة الكاريكاتير مع الأحداث الدامية في سورية على ثلاثة تفاعلات ؛ الأولى: نقل الصورة الدامية من الصفحة العامة (الرئيسة) كما تفيد دلالة كلمة (share) التي تعني" شارك / مشاركة"، وهي أحد أشكال التفاعل الفكري والعاطفي مع الحدث الدموي. والثانية : كتابة

تعليق ينسجم مع المضمون السياسي والنفسي لصورة الكاريكاتير كما تفيد كلمة(comment). والثالثة : التعبير عن الإعجاب كما تفيد كلمة (like) وإشارة الإبهام المرفوع عاليا، واللافت أن التفاعل بالضغط على رمز الإعجاب يعبر عن موقف سياسي غامض للشخص الذي أبدى إعجابه بصورة الكاريكاتير؛ فهل يعني إعجابه أنه يوافق على تدني مستوى التضامن العربي مع المشهد السوري الدموي ؟ أم هو إعجاب بالتقنية الفنية لصورة الكاريكاتير التي تجسد العجز العربي أمام نزيف الدم السوري ؟.إن الرموز الثلاثة تصور ثلاثة مستويات سياسية ؛ الأول : تفاعل صامت يجمع بين التضامن والرفض، إذ إن نقل الصورة من الصفحة العامة إلى الصفحة الشخصية يشكل موقفا موزعا على موقف متضامن مع الأبعاد السياسية والإنسانية للصورة، وموقف معارض ومستنكر للعجز العربي. والثاني: تفاعل ناطق يعبر عن رؤى فكرية وسياسية يتمثل بالكتابة عن الدلالات التي تختزلها الصورة. والثالث: تفاعل عاطفي(حذر ومبهم) يكتفي بالضغط على أيقونة الإعجاب، ويدل الحذر والإبهام في المستوى الثالث على أحد أمرين؛ الأول: الحذر من إبداء الرأي لأسباب سياسية أو حزبية، لذلك لا ينقل الصورة إلى صفحته الشخصية كيلا يعد نقل الصورة موقفا شخصيا. والثاني: العجز عن التعبير عما تختزله صورة الكاريكاتير.وقد حرص فنان الكاريكاتير على تجسيد المشهد السوري الدموي بامرأة نازفة وباكية لمضاعفة التأثير النفسي والإثارة العاطفية، وكشف الضعف والعجز في الموقف العربي الذي (يقدم) منديلا للمرأة النازفة كي تمسح دموعها تعبيرا عن " الإدانة" لما يحدث في سوريا.

ويتحول موقع اليوتيوب إلى لوحة كاريكاتورية تصور العنف و" الفلتان" الأمني الذي استشرى في أعقاب ثورات الربيع العربي، ففي يمين اللوحة يجسد الرسام مصر امرأة ملقاة على الأرض، وعلى يسار اللوحة تبدو ليبيا رجلا مصلوبا على عمود.ويدل تنوع الضحايا (امرأة ورجل) على اتساع نطاق العنف الذي لا يفرق بين رجل وامرأة. وبدا التطرف شخصين يخفي القناع الأسود وجههما، وفي الإخفاء يكمن السؤال عن هُوية الجناة، فالمتلقي يبدأ بتحليل الموقف السياسي لتحديد الطرف المسؤول عن العنف والتطرف. و لم يفت رسام الكاريكاتير أن يشير إلى همجية العنف ودموية التطرف فرسم دائرة باللون الأحمر وكتابة فيها (18+)، وهي اشارة تعني أن مضمون (الفيديو) يحوي مشاهد دموية لا يجوز

ان يشاهدها من يقل عمره عن 18 عاما. وأضاف الرسام في خلفية اللوحة سحب دخان لتصوير حرق المباني والمؤسسات.وحرص الرسام على تضمين الصورة نقدا سياسيا فكتب في الأعلى بأسلوب ساخر عبارة " أفلام الربيع العربي برعاية اليوتيوب".

ثانيا : التناص : يشكل التناص تقنية فنية دلالية في صورة الكاريكاتير التي صورت الأبعاد السياسية والفكرية لثورات الربيع العربي. وتوزع التناص على الأشكال الآتية :

1–التناص الديني يعمد فنانو الكاريكاتير إلى امتصاص البعد الدلالي لآيات من القرآن الكريم تشكل مفصلا في تاريخ البشرية، ونبضا فكريا وعقائديا في الخطاب الديني والذاكرة الجماعية، نحو استدعاء شخصية فرعون الذي يمثل في الخطاب الثقافي رمزا للغطرسة والظلم والتكبر، ففي الصورة الآتية يتحول الرئيس السوري إلى فرعون في هيئته وملابسه الفرعونية وهو يخاطب وزير خارجيته (وليد المعلم) قائلا له: "يا معلم..ابني لي صرحا من شان أشوف رب الثورة تبعهم إني أظنهم كاذبون " والنص المكتوب في اللوحة استدعاء لقوله تعالى:" وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾" (غافر).إن الربط بين شخصية بشار الأسد وشخصية فرعون يهدف إلى المقاربة بين مشهدين تاريخيين ؛ مشهد الغطرسة والظلم في زمن فرعون، ومشهد القتل والدمار في زمن بشار الأسد.كما أن الربط بين الشخصيتين ينقل الكراهية من سياقها التاريخي الموغل في القدم إلى سياقها السياسي المعاصر، ويتضاعف وهج العاطفة الدينية بسبب التناظر بين سلوك الشخصيتين وفق الرؤية الفكرية للصورة.كما أن المحفة الفرعونية التي يجلس عليها الرئيس السوري ترمز إلى كرسي الحكم أو سلطة النظام الحاكم. والأشخاص الذين يحملون المحفة على أكتافهم يمثلون الدول والأحزاب المؤيدة للنظام السوري كما يظهر من ملامحهم وهم : روسيا وإيران والعراق وحزب الله، ويدل ظهور الرئيسين الروسي والإيراني في مقدمة المحفة على موقفهما السياسي الفاعل والمتقدم في دعم النظام السوري، كذلك يدل ظهور الرئيس العراقي وزعيم حزب الله في مؤخرة المحفة على دورهما المساند الذي يقل من الناحية السياسية والدبلوماسية عن الدورين السابقين.وتُظهر الصورة مفارقة فكرية

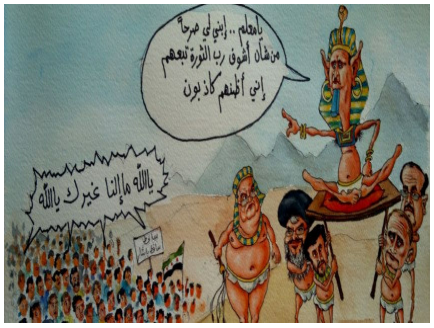

وعقائدية، فالجانب الأيمن من الصورة يمثل فضاء فرعونيا مفعما بالغطرسة والقوة العسكرية والأحلاف السياسية. والجانب الأيسر من الصورة يمثل فضاء شعبيا عقائديا مجردا من مظاهر القوة إلا من شعار ديني يتردد صداه في أرجاء سوريا : يا الله ما إلنا غيرك يا الله .

وتستحضر الصورة الآتية ظاهرة وأد البنات في العصر الجاهلي قي قوله تعالى: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾" (التكوير). وتجسدت الثورة المصرية طفلا بريئا محاصرا بالتحديات العسكرية والإعلامية والحزبية التي تهدد ديمومة الثورة وفق رؤية فنان الكاريكاتير الذي ربط بين وأد البنات دون ذنب، ومحاولة بعض الجهات تقويض الثورة والقضاء عليها وهي ما زالت في طورها الأول.

وتعبر الصورة الآتية عن الصمت والعجز في الموقف العربي أمام المشهد الدموي في سوريا، وهو موقف ناجم عن تبعية سياسية عبر عنها الرسام بعبارة: "إنا لأمريكا وإنا إليها لخاضعون"، التي تحيل المتلقي إلى قوله تعالى: "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـــهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾(البقرة)، وتُضمر العبارة في الصورة تعريضا وتحريضا في الوقت نفسه ؛ تعريض بالصامتين العاجزين عن إيقاف نزيف الدم السوري، وتحريض لتبني خطاب عقائدي يكون الرجوع فيه لله وليس لأمريكا، ويكون الانتماء فيه لله وليس للموقف الرسمي الخاضع لهيمنة السياسة الأمريكية، فالعبارة في الصورة صرخة تقريع للصامتين العاجزين.وليست العبارة في الصورة أسلوبا فنيا في جلد الذات وتصوير الهزيمة.

2- التناص الأدبي

من أشهر أبيات الشعر التي تشكل نبضا ثوريا في الخطاب الثقافي قول أبي القاسم الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة – فلا بد أن يستجيب القدر

والبيت إرث وطني ثوري في الذاكرة الجماعية. وقد وظفه فنانو الكاريكاتير في غير صورة. وتراوح توظيفه

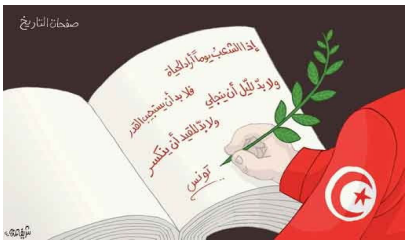

بين الحفاظ على أصله اللغوي، والتحوير

ليتناسب مع الدلالة المركزية، وهذه الصورة تعرض لانتصار الثورة التونسية دون إجراء تغيير في لغة شعر الشابي. وقد حشد الرسام ثلاث تقنيات فنية لتخصيص الصورة بالثورة التونسية دون غيرها من الثورات، الأولى : تقنية كتابية تتمثل بالتوقيع بكلمة (تونس)، والثانية : تقنية لونية تتمثل بالريشة الخضراء ؛إذ يعد اللون الأخضر رمزا وطنيا لتونس (تونس الخضراء)، والثالثة : تقنية العلم التونسي الذي بدا قميصا يلبسه كاتب صفحة التاريخ في الصورة، ويدل حشد التقنيات الثلاث على ريادة الثورة التونسية التي تعد الشرارة الأولى لثورات الربيع العربي. وتجمع الصورة التالية بين قول الشابي وصورته وخريطة تونس، ويدل هذا الجمع على تأثير شعر الشابي في الخطاب الوطني التونسي، كما أن اقتران الشاعر وشعره بخريطة تونس يؤكد وظيفة الشعر وغايته في التغيير الجذري ولو بعد حين.

وعلى الرغم من أن قصيدة "إرادة الحياة" قد نُظمت عام 1933 (قبل وفاة الشابي بعام واحد) إلا أن تأثيرها الفكري والوجداني بقي نبضا حيا في الذاكرة الوطنية، فصدحت حناجر الثوار ببيت الشعر الخالد " إذا الشعب..."، وكأن البيت نظم في الثورة التونسية المعاصرة.

ولجأ بعضهم إلى تحوير لغة بيت الشعر لإحداث تطابق دلالي بين اللغة والمضمون، كما يبدو في

الصورة التي تضمنت (إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يدحر الطغاة). والطاغية في الصورة الرئيس المصري المخلوع الذي بدا قويا ضخما يجثم على جسد " الشعب" الذي بدا بائسا متألما.

إن الجمع بين دلالة الطغيان والبؤس اقتضى تحويرا في لغة بيت الشعر. وشكل قول الشابي ثنائية دلالية في صورة الكاريكاتير، إذ عمد بعضهم إلى إحداث انزياح دلالي على لسان النظام الحاكم المتشبث بكرسي الحكم،ويختزل التحوير اللغوي والانزياح الدلالي نقدا سياسيا وسخرية من الحاكم الذي ربط نفسه بكرسي

الحكم على الرغم من العصا التي يتوكأ عليها بسبب كبر سنه. ويضمر التحوير والانزياح مقارنة بين دلالة قول الشابي في الخطاب الثوري التنظيري والميداني، ودلالته في خطاب النظام الحاكم بوساطة أجهزته الإعلامية والأمنية.

وظهر الانزياح الدلالي لقول الشابي في الرؤية الفنية السوداوية التي تعبر عن مشاهد حرب فتكت بالبشر والحجر ـــ وصورت شمولية الدمار الذي لم تسلم منه دور العبادة التي بدت رموزها الهلال والصليب حطاما. ولم يُحدث الرسام تحويرا في بيت الشعر، بل لجأ إلى حذف الشطر الثاني للبيت؛ لأن نتيجة إرادة الشعب في بيت الشعر— وفق الرؤية السوداوية للرسام- لا تحتاج إلى ذكر، فالقنابل والصواريخ هي الشطر الثاني لبيت الشعر.كما لجأ الرسام إلى تقنية كتابة ، فرسم بعض الحروف والتنقيط قنابل وصواريخ تهوي على المنازل ودور العبادة.

وظهر التحوير اللغوي في بيت أحمد شوقي :

سلام من بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

في سياق الثورة السورية التي تجسدت حصانا جامحا قادرا على تجاوز العقبات والتحديات.ويتناغم التحوير اللغوي لقول أحمد شوقي مع الرسالة السياسية للصورة التي تعبر عن إرادة الثوار وعنفوان الثورة، لذلك عمد الرسام إلى عبارة (وشعب لا يقتل) بدلا من العبارة الأصلية (ودمع لا يكفكف)، فالبكاء لا يتناسب مع رمز الحصان وجموحه. ولا يخفى أن قول أحمد شوقي كان في سياق الرثاء والحزن لما أصاب دمشق إبان الاحتلال الفرنسي، والتحوير اللغوي للبيت نفسه في سياق المقاومة والصمود، وشتان بين الرثاء والمقاومة.

وتمتص الصورة الآتية حادثة تعريض شاعر الخوارج عمران بن حطان بالحجاج الذي لاحق عمران زمنا طويلا. وحينما دخل شبيب بن يزيد وزوجته غزالة الشيباني مدينة الكوفة جبن الحجاج عن مواجهتهما، فكتب عمران بن حطان إلى الحجاج :

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير صافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

وقد أفاد رسام الكاريكاتير من اسم الرئيس السوري (الأسد)، ومن حادثة جبن الحجاج وخوفه من مواجهة شبيب وغزالة، فاستدعى قول عمران بن حطان، وأقام مقاربة بين شجاعة الحجاج في ملاحقة عمران بن حطان و(شجاعة) بشار الأسد في تدمير مدينة درعا من جهة، وبين جبن الحجاج في مواجهة شبيب وغزالة، وجبن بشار الأسد عن مواجهة الاحتلال الإسرائيلي في هضبة الجولان المحتل من جهة ثانية. وقسم الرسام الصورة إلى ثنائيات دلالية وتصويرية؛ فجعل عبارة(أسد علي) ووجه الرئيس الأسد والمشهد الدموي لمدينة درعا في جانب، وعبارة (وفي الحروب نعامة) ووجه نعامة والمشهد الهادئ للجولان المحتل في جانب آخر.

ولا يقتصر التناص الأدبي على التعريض بالرئيس السوري أو تصوير دمار مدينة درعا، بل تتجاوز وظيفته إلى غاية سياسية أخرى أضمرتها الصورة، فمن اليسير على المتلقي أن يفهم أن القدرات العسكرية السورية ينبغي أن تسخر لتحرير الجولان، وليس لتدمير المدن السورية.

3- التناص التاريخي: حينما تشتد وطأة الأزمات الوطنية، وتُستباح كرامة الإنسان، وتقتضي "المرحلة" الخروج من عنق الزجاجة يكثر استدعاء الشخصيات التاريخية في الأعمال الفنية، لتكون الشخصية المستدعاة حافزا على الصبر والصمود في مواجهة الأزمات والمخاطر، أو لتصوير التباين بين الماضي والحاضر، لهذا استدعى فنانو الكاريكاتير شخصيات تاريخية للتعبير عن مفارقات سياسية بين ماض عريق في الأصالة والكرامة، وحاضر غريق في الإهانة !. ومن أبرز الشخصيات المستدعاة في صورة الكاريكاتير شخصية المعتصم الذي يجسد منظومة من القيم التي تكفل الحرية والكرامة والشهامة، ولأن الرمز البطولي للمعتصم ارتبط بتحرير المرأة المسلمة من أسر الروم...فقد ارتبط التناص بالمرأة في صورة الكاريكاتير، نحو الصورة التي تعقد مقاربة سياسية في حوار بين امرأة سورية وأخرى فلسطينية، فالسورية نازحة عن وطنها تسأل عن المعتصم، والفلسطينية النازحة عن وطنها منذ أربعة وستين عاما تجيبها : (ارتاحي جنبي قاعدة بستناه من 64 سنة).

وفي الصورة التالية مواجهة بين القمع العسكري والأمومة والطفولة السورية. وقد عبر الرسام عن غياب نخوة المعتصم بلغة تقنية (هاتف المعتصم خارج نطاق التغطية). والصورتان تجسدان إحباطا سياسيا، ومفارقة بين ماض مفعم بالكرامة والعزة، وحاضر مثقل بالإهانة والمذلة. وتُضمر الصورتان خطابا ثقافيا مستمدا من التاريخ ومؤسسا على دور "الفرد البطل" القادر على إنقاذ الأمة من محنتها.

وتُستدعى شخصيات بوساطة أقوالها البطولية الخالدة في الذاكرة الوطنية، نحو قول عمر المختار:" لئن كسر المدفع سيفي فلن يكسر الباطل حقي"، الذي يقيم مقاربة بين مقاومة الاستعمار الليبي ومقاومة نظام القذافي. ويربط الرسام بمهارة فنية دلالية بين شهداء ثورة عمر المختار وانتصار الثورة الليبية المعاصرة من خلال انبثاق شعلة النصر من جماجم الشهداء. إن الربط بين الشخصيات التاريخية الثورية وأهداف الثورات المعاصرة يرمي إلى التأكيد على التواصل الفكري بين مراحل التاريخ الذي يشكل وعيا بنيويا في ثقافة الشعوب.

وفي سياق استدعاء عمر المختار يكتفي بعضهم برسم صورته دون تضمين أقواله انطلاقا من أن حضور الشخصية ينفي الحاجة إلى سياق لغوي، ويجسد عمر المختار في الصورة الإرادة الشعبية التي واجهت القوة العسكرية لكتائب القذافي الذي يبدو في الصورة مهزوما عاجزا على الرغم من سلاحه الناري.وقد حوت الصورة شموخا وتحديا وعنفوان في صورة المختار، وانكسارا وهزيمة وتحقيرا في صورة القذافي.

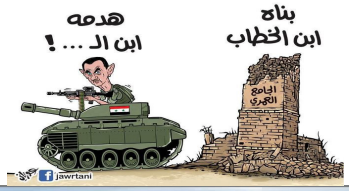

وبعض الشخصيات تُستدعى بوساطة ارتباطها بمعالم

عمرانية، نحو استدعاء شخصية عمر بن الخطاب بوساطة الجامع العمري في مدينة درعا (نسبة إلى عمر ابن الخطاب) الذي دمرته الطائرات الحربية. وفي الصورة مشهدان يقارنان بين خليفة ارتبط اسمه ببناء مسجد، ورئيس ارتبط اسمه بهدم المسجد !. وفي الصورة مفارقة مؤلمة بين عراقة حضارة مهدمة، وتقنية حربية مدمرة. وبسبب الفجوة التي تعبر عنها المقارنة والمفارقة عمد الرسام إلى أسلوب الحذف (هدمه ابن الـــ...)؛ ليضع المتلقي (ما يشاء) من وصف يتمم الجملة الناقصة، وكأن تعبئة الفراغ تفريغ نفسي للرسام والمتلقي.

وتأتي وظيفة استدعاء الشخصيات نقيضا لما تقدم حينما تتشابه سياسة الشخصية المستدعاة مع سياسة النظام الحاكم، وتختلف مع أهداف الثورة. ويكون الهدف من الاستدعاء مقاربة بين مشهد تاريخي دموي، ومشهد معاصر مأساوي، وتعريض بسياسة القهر والقمع، نحو المقاربة بين شخصية (نيرون) الذي أحرق روما، وجلس في برج مرتفع (يتأمل) احتراق المدينة، وهو يعزف ويغني أشعار هوميروس التي تصف احتراق طروادة، وشخصية بشار الأسد في سياق تدمير المدن السورية.

ويشكل استدعاء بعض الشخصيات دعوة لاسترجاع أحداث تاريخية مأساوية تربط بين مشهدين بهدف تعديل " الثوابت التاريخية " في الذاكرة الثقافية، نحو الجرائم التي نجمت عن غزو المغول والتتار لديار الإسلام التي تعد الأكثر دمارا ودموية في التاريخ العربي الإسلامي، لكن الصورة الآتية التي تخاطب بشار الأسد بلسان التتار والمغول (يا أخي خلي عند دم، احنا المغول والتتار ما سوينا مثل اللي أنت قاعد بتسويه في شعبك) تعدل الثوابت التاريخية فتجعل الدمار في سوريا أكثر دموية من الدمار الذي أحدثه التتار والمغول.

وكذلك تقارب الصورة التالية بين الدمار في الحرب العالمية في زمن هتلر، والقمع التنكيل بالثوار من قبل الأجهزة الأمنية المصرية.وتعبر الصورة عن دلالة خاصة شغلت الرأي العام، وهي إصابة المتظاهرين في عيونهم، وهي الحوادث التي اتهم بها أحد الضباط الذي لقب بـــ"قناص العيون". ويعبر التعليق على

لسان هتلر(حرام عليكم..بتضربوهم في عنيهم يا كفرة!!) عن استياء الرأي العام من الحدث. ولا يخفى أن الذاكرة التاريخية لا تحفظ تفاصيل الأحداث، لكن الصورة تجعل من الحدث وشما في الذاكرة ونبضا في الوجدان، ويُصبح الحدث مفصلا رئيسا في أحداث الثورة.

وتكتسب بعض الأحداث بعدا رمزيا يختزل تأثيرا وإثارة، وبخاصة الأحداث التي تتصل بالطفولة في الحروب والثورات، نحو ما حدث في محافظة درعا السورية حينما اعتقل الطفل "حمزة الخطيب "(13 عاما)، وتعرض للتعذيب، ثم قُتل ومُثل بجسده! والتقط رسام الكاريكاتير هذه الحادثة وحول بعدها الإنساني إلى بعد تاريخي عقائدي، فربط بين قاتل الطفل "حمزة الخطيب "ووحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب، وبهذا الربط يصبح قتل الطفل " حمزة الخطيب " جريمة تاريخية عقائدية.

4- التناص الرقمي

تشكل بعض التواريخ تحولا جذريا في الحياة السياسية والفكرية في تاريخ الشعوب .وقد شهدت ثورات الربيع العربي مفاصل زمنية جسدت مراحل انتقال وتحول في مسارات الحياة العامة ، وقد يكون التاريخ الزمني مقصورا على ذكر السنة ، أو محددا باليوم والشهر والسنة . وتبرز مهارة رسام الكاريكاتير في تحويل الأرقام الزمنية إلى دلالات سياسية ، وتعتمد المهارة على التشكيل البصري " للأرقام ، كما في الصورة الآتية التي تعبر فيها سنة (2011) عن أبرز الأحداث السياسية في ثورات الربيع العربية ، فقد تحول الرقم (2) إلى منحدر حاد وهاوية سقط فيها النظامان التونسي واليمني . وتحول الرقم (0) إلى مشنقة عُلق عليها القذافي . وتحول الرقم (11) إلى قضبان سجن للرئيس المخلوع حسني مبارك، فقد جسدت الصورة الرقمية أبرز أحداث عام 2011 ، وهي هروب زين العابدين بن علي ، وتنحية علي صالح ، وقتل القذافي ، وسجن حسني مبارك .

وفي الصورة التالية يتحول تاريخ انطلاق الثورة المصرية (25 يناير) إلى "جدارية " وطنية ، ومناسبة خالدة في التاريخ الوطني المصري ، فيبدو الرقم (5) وجها خاشعا يكسوه جلال الحزن على شهداء الثورة ، ويبدو رقم (2) ذراعا تؤدي التحية العسكرية.

ثالثا :الرموز

توسل فنانو الكاريكاتير بحزمة من الرموز التي تجسد المنظومة الفكرية والسياسية لثورات الربيع العربي ، ومن أبرزها :

1-الساعة :يغلب على الفضاء الزمني لثورات الربيع العربي الترقب والتوتر، فحشود الثورات في الميادين والساحات يترقبون سقوط النظام بتوتر وقلق . وقد عبر فنانو الكاريكاتير قي غير ثورة عن اقتراب موعد سقوط النظام ، وانتصار الثورة بالساعة التي اتخذت شكلين؛ الساعة الآلية والساعة الرملية.وبدا التشابه في الدلالة ،وفي المكونات الفنية لصورة الساعة في الشكلين (الآلي والرملي) . فالصورتان تعبران عن اقتراب رحيل الرئيسين المصري واليمني .وبدا رأس الزعيم مؤشرا (عقربا) لتوقيت الساعات ، والطائرة (رمز الرحيل) مؤشرا لتوقيت الدقائق. ومن المرجح أن الطائرة اتخذت رمز رحيل النظام من طائرة الرئيس التونسي زين العابدين الذي حلق بطائرته حينما انتصرت الثورة التونسية .

وتكاد دلالة الساعة الرملية تقترب من دلالة الساعة الآلية ، كما يظهر في الساعة الرملية التي تجمع بين سقوط زين العابدين ، واقتراب سقوط حسني مبارك. وتتجلى الدقة في الرسم والدلالة ، فالساعة الرملية الخاصة بزين العابدين أصغر حجما من الساعة الخاصة بالرئيس المصري ؛ لأن الثورة التونسية انتصرت ، والرئيس رحل واختفى .وقد عمد فنانو

الكاريكاتير إلى التنويع في تشكيل الساعة الرملية ، فاستخدموا العلم الوطني بدلا من صورة الرئيس ، كما في الصورة التي يبدو فيها العلم "الرسمي" للنظام السوري الذي اعتمدته الدولة بعد ثورة

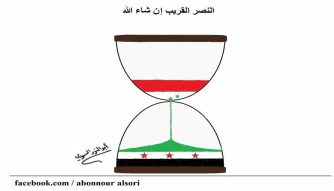

الثامن من آذار بقيادة حزب البعث عام 1963 وبقي حتى الأول من كانون الثاني عام 1972 ، ويختلف عن العلم الرسمي الحالي الذي تظهر فيه نجمتان فقط(علم الجمهورية العربية المتحدة 1958) . إن استخدام فنان الكاريكاتير هذا العلم في الساعة الرملية دون غيره من الأعلام العديدة لسوريا يعني بدء العد التنازلي لانتهاء حكم حزب البعث برمته ، ولا يعني رحيل الرئيس السوري فحسب ، فالصورة تدل أن الثورة تهدف إلى إسقاط حزب وهزيمة فكر ، ومن المفيد أن نشير إلى أن ألوان علم الثورة السورية تختلف عن ألوان علم حزب البعث ، فألوان علم الثورة هي الأخضر والأبيض بنجومه الثلاث والأسود ، وهو العلم الذي ظهر بعد انفصال سوريا عن مصر (1961).

ورصدت الساعة الرملية التسارع الزمني للمساعي الدولية التي قام بها مبعوثا هيئة الأمم المتحدة " كوفي عنان " والأخضر الإبراهيمي " ، ويظهر كوفي عنان بعد فشله في حل " الأزمة السورية" وهو يسلم ساعة رملية "للأخضر الإبراهيمي" .وانتهاء" التوقيت" في الساعة الرملية يدل على فشل الجهود الدبلوماسية والسياسية في حل " الأزمة السورية " ، وأن سقوط النظام هو الحل الوحيد كما تدل معطيات الصورة.

2-الأزهار والورود

أصبح لفظ " الربيع " في الخطاب السياسي علامة لغوية سيميائية تختزل تفاصيل الثورات المعاصرة ،واستمد رسام الكاريكاتير من لفظ " الربيع" صورا فنية معبرة عن أحداث ثورات الربيع العربي ،فظهرت الأزهار والورود في صور الكاريكاتير أيقونات سياسية ، نحو الصورة التالية التي تظهر فيها الزهرة البيضاء(رمز الثورة) محاصرة بثلاث قوى معادية للثورة ؛أولها : النحلة التي تدل أعضاؤها على الشراسة والافتراس ، لذلك كتب عليها الرسام (أنظمة القمع والفساد) . وثانيها : الدودة التي تأكل أوراق الزهرة ، وتلتف على ساقها ، وقد أُشير لها بعبارة (قوى الظلام والإرهاب) التي تعني التطرف أو العنف الذي يهدد مسار الثورة ، ويهدد بحرف الثورة عن أهدافها .وثالثها : المبيد الزراعي الذي كتب عليه (القوى العظمى). وقد تحقق انسجام فني ودلالي بين مكونات الصورة من حيث التناسب بين الزهرة والنحلة والدودة والمبيد الزراعي.

وجسدت بعض الصور المخاوف من نتائج الثورات ، وخطاب التشكيك في أسباب الثورات ونتائجها، فظهرت عبارة "الربيع العربي " وأوراق الخريف تتساقط منها، وترمز الأوراق الذابلة الصفراء إلى تشاؤم الخطاب الإعلامي المعارض لاشتعال الثورات، وبخاصة أن بعض الثورات قد آلت إلى غياب الأمن وانتشار العنف.

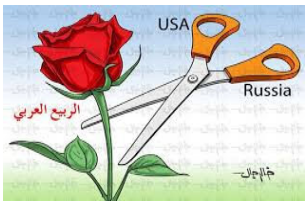

كما اختزلت صورة الكاريكاتير خطابا سياسيا مؤسسا على مصالح القوى العظمى (أمريكيا وروسيا) في اندلاع الثورات انطلاقا من رؤية سياسية تزعم أن نتائج الثورات ستكون استعمارا جديدا، كما تدل الصورة التي يظهر فيها المقص الأمريكي الروسي "يقطف" ثمار الثورة.

صدر حديثا

أمبرتو إيكو
اعترافات روائي ناشئ
ترجمة
سعيد بنكراد
المركز الثقافي العربي